«مستقبل الدراما السوريّة» في ندوة كبرى في دمشق ذات محاور تحدّث فيها وزير الإعلام عن أهميّة هذه الصناعة الوطنية الناجحة

عمران الزعبي: لمناقشة القضايا الكبيرة بعيداً عن الجزئيّات
جبّور: تنوّع في إطار الوحدة الشاملة

كتب سامر اسماعيل من دمشق (سانا): حشد فني وإعلامي شهدته قاعة أمية في فندق الشيراتون في دمشق حيث أقامت «المؤسسة العامة للإنتاج الإذاعي والتلفزيوني» ندوتها طوال يومين، وافتتح وزير الإعلام عمران الزعبي افتتح برنامج هذه الندوة بكلمة وجهها إلى جميع صناع الدراما التلفزيونية من كتاب ومخرجين وفنانين وفنيين قائلاً: «هذه الورشة هي حصيلة تفكير وحاجة، كون الدراما السورية في أمسّ الحاجة اليوم إلى وقفة مراجعة، بين فترة وأخرى، نناقش فيها الحاجات والقضايا العالقة ونضع الخطط التي تحقق الأهداف الحقيقية في هذا الإطار فالعاملون في الدراما، الغائبون منهم والحاضرون، يدركون طبيعة الهموم التي يعيشها هذا القطاع سواء في ما يتعلق بالأجور أو بالنصوص أو بالتسويق والترويج والإنتاج وغيرها». وتابع عمران: «إن بعض الأخوة العرب الذين تعاملوا مع الدراما السورية لم يكن تعاملهم أخلاقياً بل مادياً وتجارياً، مع فرق واضح في الهدف والهوية الوطنية والقومية، إذ استدرجت الدراما السورية إلى أماكن ومواقع في الإنتاج والتسويق والنص والسيناريو كان ينبغي ألا تذهب إليها، وهي أماكن لا تتوافق مع هويتنا وقضايانا الاجتماعية والسياسية». وأضاف في معرض حديثه عن شجون الإنتاج الدرامي أنه «يجب أن تخلص هذه الورشة إلى نتائج تحدد بدقة ما تعانيه الدراما السورية اليوم من مكامن الضعف والحاجات للفنانين والكتاب وسائر مكونات قطاع الدراما، فعلى هذه الورشة أن تقدم إلى الدولة خلاصة يمكن التعويل عليها لتصويب مسار الفن التلفزيوني في سورية»، معتبراً «أن الدراما السورية حاجة عربية لا بديل منها، فالعرب أدمنوا دراما وأصبحت هذه الدراما جزءاً من حياة كل أسرة عربية بطريقة أو بأخرى، ومهمتنا أن نعوّدهم على إدمان نوع فني راق هادف لا سوقي مبتذل، ويجب ألا نتنازل عن الاعتداد بالدراما السورية بعد ما بلغته من نجاح محلي وعربي والتضحيات التي قدمها فنانون كبار صنعوا هوية حقيقية للثقافة السورية، فالدراما السورية مركز إشعاع وطني يشبه أكبر مراكز الأبحاث والدراسات في دول العالم»، مشيراً الى «أن الدراما السورية يمكن أن تكون هوليوود العرب، لكن ذلكيحتاج إلى تنظيم وتنسيق ومتابعة وإيمان وتضحيات، وهذا موجود لدى الكثير من الفنانين الذين اضطر بعضهم إلى تقديم بعض التنازلات في موضع ما أو بلد بسبب ظروف الحياة. ما نريده اليوم ليس العودة إلى إنتاج كم كبير من الأعمال بل التركيز على النوع، وحبذا لو اجتمع الاثنان، إذ علينا منح فرص عمل للفنانين والفنانات الشبّان، وهذا ما توفره مؤسسة الإنتاج التلفزيوني المنفتحة على العمل والشراكة الفنية والإنتاجية، وهذا العمل يجب أن يكون ذا مرجعيات ويتطلب مجموعة عمل تحقق تواصلاً بين الشركات الفنية والفنانين والمؤسسة، لتحقيق التنافس الذي لا يخلو من السجالات الفكرية والثقافية التي لا يجب ألاّ تكون على قاعدة المناكفة والعصابية الفكرية بل العمل بعقلية منفتحة تحقق نتائج ملموسة وتعود بالفائدة على الوطن والمواطن». وشدّد على ضرورة مناقشة القضايا الكبرى في الأعمال الدرامية بعيداً عن الجزئيات.

الوزير الزعبي

ديانا جبور

من ناحيتها، قالت ديانا جبور، المديرة العامة للمؤسسة العامة للإنتاج الإذاعي والتلفزيوني: «إن الدراما السورية ليست بخير، والبعض يقول إنها في حالة تدهور، وآخرون يقولون إنها في حال انحسار. المتفائلون فقط يقولون إنها ما زالت تحتفظ بمكانتها السابقة، فالدراما العربية اليوم تنافسنا بتقنيات بصرية وفنية عالية، والدراما مركبنا جميعاً يستطيع أياً يكن أن يقفز منه وقد ينجو بيولوجياً لكنه سيخسر دوره ولن يكون فاعلاً في مجتمعه مثلما ينبغي أن يكون أي فنان سوري» ، موضحة «أن الندوة تعمل على توضيح ما هو مطلوب من الجهات كافة لتلبية ما تطمح إليه الدراما السورية، وهذه الورشة تقام تحت مظلة وزارة الإعلام التي ترعى هذه الفعالية من غير أن تمارس دور الوصاية بل تشجع وتحمي وتدعم دور الإنتاج الفني في القطاع العام وتحرص على رعايته، فأي منتج وطني يحتاج إلى بيئة تشريعية وآفاق تسويقية، وهذا ما تؤمنه الدولة، لذا نحتاج إلى تلك الشراكة بين القطاعين العام والخاص إذا سمحنا بتدهور الدراما السورية فإنها لن تستطيع النجاة إلى مدى طويل، لذلك نحاول في هذه الورشة الوقوف في الجلسة الأولى على العقبات التي أعاقتها، من دون التحدث عن الأسباب التي قد توقعنا في بكائيات لا طائل منها، بل نريد آفاقاً للحل. أما في الجلسة الثانية فتتناول السلبيات التي وسمت المنتج الدرامي السوري، فلنا جميعاً ملاحظات حول هذه السلبيات، لكن علينا عدم الوقوع في مطبّ جلد الذات أو تبادل التهم. والجلسة الثالثة حول الرسائل والقيم التي يمكن للدراما السورية ويفترض أن تسوق لها وأن تقدمنا كسوريين كما نحن، مع مراعاة خصوصيتنا السورية المطلوب أن تكون حاضرة في هذه الدراما، وترسخ هويتنا الوطنية التي تشكلت نتيجة تفاعل مكونات عديدة، فنحن متنوعون في إطار من الوحدة الشاملة، لذلك على الدراما السورية أن تركز على الاختلاف السياسي من دون الاختلاف على الوطن. إن هناك من يقدم الإنسان السوري كمتطرف يمضي نحو التشدد أو الانحلال، وهذه صورة مخالفة لحقيقة المجتمع السوري، فالتشتت حول أعداء مختلفين وعداوة وهمية خطيئة كبرى، ولا بد من إعادة التموضع في وجه العدو الأساسي فثمة محاولات لضرب المؤسسات والملكيات العامة، ما يدفعنا اليوم إلى ضرورة إظهار أن الإساءة إلى هذه الملكيات ستعود سلباً على ملكياتنا الخاصة التي ستتأثر قيمتها في حال تقويض المؤسسات العامة الداعمة للمجتمع». مؤكدة على أهمية التصدّي الدراما للآلية التي تودي بالمواطن السوري إلى حالة التطرف، فنحن معنيّون بإصلاح هذه الصورة لأسباب براغماتية وتقديم اقتراحات تكون كفيلة بدعم الدراما السورية، شرط أن تكون مقرونة بزمن محدد، فمن دون معايرة زمنية قد نقع في مطب الإنشاء. كما علينا إعادة صوغ المقترحات لرسم خطة طريق عمل وتحديد المهل بقياس زمني لتحقيقها، فإن استطعنا تنفيذ أربعين إلى خمسين في المئة منها فهذا إنجاز كبير».

الجلسة الأولى دارت حول العقبات التي افتتحت بورقة عمل قدمها الكاتب والأديب حسن.م يوسف متحدثاً عن ضيق السوق الوطنية لترويج الأعمال السورية، إضافة إلى ضعف القدرة المالية للمنتجين، فالدراما أشدّ تأثيراً وانتشاراً من الصحافة والإعلام، وهذا يتطلّب مؤهلات حرفية للدراميين، وهذا الأمر غير متوافر في صناعة الدراما، فالصحف توزع محلياً، أما الدراما فتدخل كل بيت عربي وتلعب دوراً مركباً كونها سفيرنا إلى العالم وتؤدي دوراً أهم أحياناً من دور وزارتي الخارجية والإعلام»، موضحا «أن لا نظام داخلياً لصناعة الدراما يضبط سلوك الشركات المنتجة ويضمن نقاء هوية إنتاجنا كجزء مهم من الثقافة الوطنية السورية، ونتيجة لهذا الوضع المنفلت تجد الدراما السورية نفسها في أحيان كثيرة تحت رحمة التجار الذي يقدسون مصالحهم الخاصة»، مشيراً إلى ضعف القدرة المالية للمنتجين الذين يفرضون رغباتهم على العمل، ما أدى إلى بحث الأعمال السورية عن وسائل تمويل أخرى وإلى تسلل البترودولار الذي أدى بدوره إلى وقوع الدراما السورية تحت رحمة أسياد السوق؛ فالدراما فن وصناعة، لكن بعض المنتجين حولوها إلى مجرد تجارة ويا للأسف، وزادت من تفاقم هذا الوضع سيطرة بعض التجار على معظم مفاصل العملية الإنتاجية وعلاقات بعضهم المريبة بالجهات المعنية بشراء الأعمال الدرامية في المحطات العربية. وأضاف كاتب «أخوة التراب»: «إن المنتجين يعملون على ما يضمن لهم تسويق منتجهم الدرامي، بغض النظر عن سويته في بعض الأحيان، وهذا الوضع يؤدي إلى تهميش الإبداع وانحسار حضور الفنانين والفنيين الجادين لمصلحة آخرين، فحين تفرض التجارة قوانينها على الفن يغدو طبيعياً أن تطرد العملة الرديئة العملة الجيدة من السوق. ومن أبرز التحديات التي تواجه الدراما ولادة جهات إنتاجية محلية في مختلف أنحاء العالم العربي، ما قلل الطلب نسبياً على الدراما السورية، وهذا التحدي يمكن التغلب عليه من خلال التركيز على تقديم الأعمال النوعية التي لا يمكن إنتاجها إلا في البيئة السورية ومن قبل المبدعين السوريين».

الباحث محمد أبو معتوق أشار في مداخلته إلى الترابط بين الدراما والإنسان السوري «فالدراما السورية سواء عليلة كانت أو صحيحة هي كائن متصل بنا، وقد أصيبت بزلزال كالذي أصاب الإنسان السوري، وعندما كان الإنسان السوري مستقراً في وطنه كانت الدراما مستقرة في سورية وتابع إنتاجها بجهد وإخلاص واستشهد بعض فنانيها وهجرت الدراما نصف هجرة إذ أنجزت بعضاً من إنتاجها داخل الوطن والبعض الآخر خارجه، وهجرت نهائياً إلى أماكن بعيدة، مثلما هجر الكثير من السوريين، ما يؤكد الترابط بين الدراما والإنسان على نحو عميق وكبير. ولأن الأزمة أصابت الإنسان والمكان، فإن بعض الدرامات في الحقيقة لم تخلص لهذا الزمان والمكان فحولته إلى عباءة أو قميص ملأته بكائنات وأفكار لا تشبه المكان والزمان، واستسلمت هذه الدراما لتمويل خارجي، وهذا التمويل ضخ فيها قيماً ومثلاً لا تشبه السوريين، رغم أن البيئة سورية والمعطيات متصلة بروح الكائن السوري، لكنها غريبة عن طبعه وكينونته، مثل مسلسل «باب الحارة» (...)».

زهير رمضان قدم سرداً تاريخياً عن بدايات الدراما متحدثاً عن جيل الرواد وفترة الثمانينات، مستشهدا بمسلسل «عريس الزين» كأول مسلسل دق أبواب المحطات العربية النفطية محققاً أرباحاً مالية عالية، ليفكر الكثير من الفنانين والمنتجين بعدئذ في التصدي لهذه الصناعة، ما أدى إلى مغادرة العديد من هؤلاء وطنهم إلى أحضان الخليج. ورأى مؤدي شخصية «المختار بيسه» أن هذه الطفرة أدت إلى ظهور أكثر من 600 تجمع فني إنتاجي في سوري ونحو 500 تجمع نقابي فني يخص نقابة الفنانين وحدها، ما أفضى إلى تعزيز حضور الدراما السوري؛ التي لفتت الانتباه، ولكن يبقى على رأس هؤلاء آنذاك التلفزيون العربي السوري، شيخ الإنتاج الفني والوطني بامتياز. وأوضح رمضان «أن كل ما تحقق آنذاك من إنتاج درامي محترم كان تحت عباءة التلفزيون؛ ثم بدأت المشاكل، وكانت وزارة الإعلام تحاول في كل مرة جمع أهل البيت للوصول إلى صيغ منطقية للحفاظ على هذا المولود الجديد الذي اسمه الدراما السورية، من دون إغفال أعمدة وخامات وطنية نفتخر بها مثل علاء الدين كوكش غسان جبري شكيب غنام ومحمد فردوس أتاسي من رواد هذه الدراما».

المخرج زياد جريس الريس اعتبر في مداخلته «أن الألم كبير، فثمة دم فاسد في الدراما السورية وقتل لروح الاندفاع والحماسة لدى الشبّان وابتعاد واضح عن الشارع السوري، فالأزمة كشفت الكثير من هذه الأدوار، فهناك عدم الإفادة من الفنانين الأكاديميين لبناء الدراما السورية ولم تؤسس لمدرسة حقيقية ذات جذور، رغم وجود قرار حكومي صريح وواضح وصارم بإزالة جميع العقبات أمام الدراما السورية لتغدو ذات مستوى عالٍ ورفيع. على سلطة الدولة أن تكونَ فاعلة، في الإنتاج الخاص، ويجب عدم الخلط بين المال والإبداع والمال والأخلاق ولأيّ منها الأولوية، فعلى المنتجين في القطاعين العام والخاص التفكير في هذه النقطة، لأنّ القيم والأخلاق والإبداع هي الرسالة، وتحت هذه العناوين يكون كل شيء ممكناً»، مقترحاً التوجه إلى داخل المجتمع السوري.

النجم الكبير والقدير رفيق سبيعي قال: «إن نفخر بانطلاقة الدراما السورية التي عبرت عن أصالتها في السنوات الماضية، بل استطاعت أن تجد لها مكاناً بارزاً على مساحة العالم العربي كأعمال كرست مجموعة من الكتاب والمخرجين والفنانين والفنيين رواداً حقيقيين، ولولا ذلك لما انتشرت هذه الأعمال وعرضت على جميع قنوات الناطقين بالضاد. في عهدنا الحالي كرست نظرية إعطاء المناصب الإدارية الحساسة كمكافأة لكل من قدم ويقدم خدمات خاصة إلى دوائر معينة في الدولة، ما جعل التخصص في العمل الفني الحقيقي بلا قيمة، وهناك من نذر نفسه ليكون فناناً ملتزماً وترك أهله سنوات عديدة ليعود ويحمل العلم والمعرفة، ما يؤهله لتولي منصب مع العلم الذي تلقاه الذي أضحى بلا قيمة له أيضاً. ذلك كله بات غير ضروري أصبح ليس ضرورياً للحصول على منصب مؤثر في هذا المجال. كانت بدايتنا في الدراما السورية مشرّفة واستطعنا في زمن قياسي أن نقطع شوطاً كبيراً ما أهل الدراما السوري لاحتلال موقع الريادة وبتنا نفخر بذلك. إن الدراما الشعبية التي استطاعت ماضياً حيازة قصب السبق في الدراما العربية انحدر مستواها؛ وكنا نتمنى الصعود المستمر التي حصلت عليه الدراما الشامية لولا دخول الأصابع السوداء التي استغلت هذا النجاح وحولته بأموال البترول إلى ميدان مسيء لصورة الأصالة التي كنا بدأنا مسيرتنا فيها بنجاح متواصل».

مصطفى الخاني قال إن من الصعب إيجاز ما تحتاج إليه الدراما السورية في كلمتين، وإلا ما كنا احتجنا إلى هذه الورشة وإلى كلمات هؤلاء الأساتذة. نحن في حاجة أولاً إلى أن نعي ما لدينا من مشاكل. إن نصف الطريق إلى حل المشكلة هو إدراكها والاعتراف بها ثم العمل على حلها؛ فثمة أسباب للتراجع التي أعاقت تطور الدراما السورية، ومثل هذه الورش يجب ألا تكون للظهور في الإعلام والكلام فحسب عن كوننا بلداً حضارياً، بل يجب أن تكون هناك خطوات عملية لتنفيذ ما تخرج به ورش العمل».

المخرج باسل الخطيب قال حول نقل تجربة سينما المؤلف إلى الدراما السورية «إن أي عمل فني هو في النهاية عمل مؤلف، ولا أقصد هنا بعمل المؤلف الشخص الذي كتب النص، بل الشخص الذي تبنى هذا المشروع بكل ما فيه من أفكار وقيم وطروحات، وبالتالي فإنّ سينما المؤلف ليست فحسب سينما المخرج الذي كتب السيناريو بل سينما مخرج ذي مشروع فكري متكامل يريد أن يعمل عليه، وقد يكون معه شركاء في عملية الكتابة. وهذا ما يمكن أن يتحقق في الدراما التلفزيونية، وإن يكن الخيار أصعب، فإذا كنا في الفيلم أمام عمل فني مدته ساعة ونصف ساعة فنحن في العمل التلفزيوني أمام ثلاثين حلقة، وإذا كانت السينما تجنح إلى تقديم مواضيع تعني فئة قليلة من الناس فإننا في التلفزيون نتوجه إلى فئة واسعة ومعقدة ولا بدّ للمؤلف من معرفة كيف يتوجه إليها».

هذه الفعالية التي نظمتها المؤسسة العامة للإنتاج الإذاعي والتلفزيوني تحت عنوان «مستقبل الدراما السورية... الاستحقاقات والاحتياجات على ضفتي استجابة» تضمنت عدة محاور وشاركت فيها كوكبة من نجوم الدراما السورية ومنتجيها ومخرجيها وكتابها، أملاً في الوصول إلى دراما سورية معافاة ومتحررة مما يعوق قدرتها على تقديم الواقع السوري والتأثير فيه إيجابياً.

تردّ ثقافيّ أم رداءة ثقافيّة

■ رولان رياض مشوح*

واقعنا الثقافي في العالم العربي «مليء» بقلّة الإنتاج الثقافيّ، وضعف المؤسسات الثقافية العربية في تلبية الخدمة أو تقديم الحاجة التي لأجلها أنشئت. كما أنّ النّخب المثقفة تراخت عن تقديم واجبها إزاء العقول الناشئة، وتجاهلت دورها الأساسي في بناء ثقافة وطنية، ونسيان واجبها الحقيقي في مقاومة هذا الواقع المتردّي، من خلال زيادة الإنتاج الفكري، وتسخير معارفها في بناء ثقافة ذات عمق اجتماعي. ولعلّ خوف المثقفين واستسلامهم أدّيا إلى إزدياد ضعف دورهم في تحسين الواقع الثقافي، ما انعكس سلباً على المؤسسات الثقافية.

كذلك، لعلّ غالبية المثقفين في عالمنا العربي يعانون من أمراض مزمنة، كارتفاع الأنا لديهم، والظنّ بأنهم الأشخاص الوحيدون القادرون على فهم ما يجري من معطيات حولهم، بالإضافة إلى مشكلة تعدّ من أكبر الكبائر ألا وهي مناقشتك رأي أحدهم، أو إعطاء رأي مخالف لما طرحه. هنا يظهر المرض وتورّم الذات، إذ ينعتك بقلّة الفهم والتخلّف وعدم قراءة الواقع قراءة صحيحة وواقعية وموضوعية!

تنظر مجتمعات عديدة إلى مثقفيها على أنهم أصحاب العصا السحرية الذين تتوافر لديهم العلوم كلها، كما أنّ المتداول بين الناس أنّ المثقفين هم الذين يمتلكون – إضافة إلى وعيهم ومحصولهم المعرفي - اهتماماً كبيراً بقضايا الشأن العام، ويتفاعلون مع هذه القضايا بحسّ ناقد يُطرح من خلاله موقف مدعّم بمنطق معرفي. ولكن في مجتمعاتنا العربية رُسمت للكثير من المثقفين صورة موحدة، باهتة الألوان، ميتة الحركة، عنوانها العريض أنّ المثقفين «يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يقولون»، على الرغم من إقرارنا بأنّ الثقافة لا تُرى بمعزل عن الواقع الاجتماعي أياً يكن ذلك الواقع (رديئاً أو جيداً).

يُعتبر المثقف طرفاً مسؤولاً وليس محايداً في هذا الواقع، لكن البعض يكتفي بمراقبته ورصده لمجرّد المتعة المعرفية أو الذهنية، ومن المؤكد أنّ الثقافة لا تنمو بشكل خلاق إلاّ بوجود مناخ من الحريّة يطلق الروح الإبداعيّة لدى المثقف ويلغي القيود الذهنية على العقل المفكر.

إنّ ما يشهده العالم العربي من أزمات وظروف سيئة، إضافة إلى واقعنا الثقافي المتردّي، وكون الثقافة العربية تمرّ في أزمة عميقة، يحمّل الطبقة المثقفة في وطننا مسؤولية كبيرة بوصفها الفئة المعوّل عليها خوض غمار هذه المعركة الفكرية والمعرفية الملحّة، ما يتطلب من المثقفين شجاعة فكرية في الإشارة إلى مواضع العطب، وفي ابتداع الوسائل والأدوات لدخول المناطق المحرّمة في الفكر والوعي، ومحاولة استغلال جميع المساحات المتاحة، وخلق مساحات جديدة، والتفكير في برنامج ثقافي واضح قادر على التغيير، فالاستسلام لواقع ثقافي أبسط من ظاهرة أنّ العرب هم من أقلّ الشعوب قراءة على وجه المعمورة.

من هنا نقول: «لا نستطيع تغيير شيء ما دمنا لا نملكه وليست لنا القدرة على انتزاعه كما هو لنحدث فيه ما نريد من تغيير؟»، على حدّ تعبير جان بول سارتر في دفاعه عن المثقف.

إلاّ أنّ السؤال الذي يتبادر إلى أذهان الكثيرين، أين هم المثقفون؟ ما هو دورهم، وماذا قدموا لرفع مستوى الوعي والسوية الثقافية؟ وكيف سعوا إلى إعادة بلورة القيم الإنسانية والأخلاقية في المجتمع؟

للمثقف العربي اليوم دور أساسيّ يمثل تحدياً كبيراً له، وعليه أن يجيب على الكمّ الهائل من التساؤلات التي هرب منها في الماضي.

ومَن المسؤول عن التردّي أو الرداءة التي وصلت إليها مجتمعاتنا العربية؟ كيف أصبحنا في يوم وليلة بلا ثقافة ونحن أهلها؟ كيف أصبحت ثقافتنا منقولة وهجينة؟ استجلبنا أفكاراً غريبة عنا ووضعناها في قالب يتناسب مع قناعاتنا، إلا أنها ظلّت باهتة لا تشبه ما تعلمناه ممّن سبقونا. أين نحن من الذين سبقونا؟ هل كانوا أهل علم ورؤية وثقافة أكبر؟ هل هجرنا الكتب والمكتبات بسبب تسارع الحياة وكثرة وسائل الاتصال الحديث؟ أم أننا ما زلنا نتغنّى بأجدادنا وبتراثنا وبماضينا وبثقافة غابرة تركها أصحابها ورحلوا؟ أين نحن من الحاضر؟ وماذا سنترك للمستقبل؟ وهل سيأتي جيل جديد ذو إمكانات جديدة وذهنيات مختلفة وتطلعات مستقبلية واختلافات جذرية عن تطلعات الأجيال السابقة؟ لعلّها أسئلة برسم السادة المثقفين، متمنّين الوصول إلى إجابات سريعة عن واقعنا الثقافي المؤلم، والتردّي الذي نشهده في مجتمعاتنا. إنّه مشهدٌ مبكٍ وواقع رديء، والألم يعتصرنا... بانتظار الردّ.

*محامية

قصّة

طفل الغيمة

كلود عبد المسيح

افترشت جدّتي طرّاحتها الحمراء الخاصّة بها، بعدما فكّت ضفيرة شعرها الذي جافاه المقصّ منذ طفولتها. كانت تستغرق وقتاً طويلاً لتسريحه بمشطها العاجيّ المربّع، وتضفيره من جديد، في تأنٍ وإتقان.

كنّا ننتظر هذه الجلسة الطويلة بفارغ الصبر، لكي نتحلّق حولها مثل السوار، بانتباه وتركيز تامّين، لتقصّ علينا قصصها الشائقة عن جحا وعلي بابا والشاطر حسن. فلجدّتي طريقة فريدة في سرد القصص تفوق كلّ ما عرفت في حياتي من وسائل التشويق وشدّ الانتباه، وكلّ ما يرضي المستمع ويمتّع فضوله.

قصص كثيرة سمعتها منها ما زالت عالقة في ذاكرتي. لكن واحدة من تلك القصص بقيت تحفر في وجداني، يتردّد صداها في حنايا ذاكرتي، باحثة عن نهاية حقيقيّة ملموسة، غير أنّني لم أهتد.

أذكر أنها كلّما روت لنا تلك القصّة تحديداً، كانت تتغيّر سحنتها ويرتجف صوتها، جاهدة نفسها بتخبئة الدموع التي تتراقص في مآقيها، كأنّ ذلك حصل البارحة. كانت ترتسم فوق وجهها المتعرّج القسمات والمليء بالأخاديد والتجاعيد بشائر الحزن والأسف وهي تقول: «في ما مضى، كانت هناك عائلة مؤلّفة من أم وأب وفتاة وصبيّ. لم تكن الفتاة تتجاوز السادسة، وكان الصبيّ دون الرابعة. كانوا يصطافون حيث يملك الوالد قطعة أرض تمتدّ فسيحة أمام قدمي نسر شاهق العلو. وكان النسر عبارة عن مجموعة من الصخور السوداء الخشنة المسنّنة، وقد جمّعتها الطبيعة أو حفرتها عبر القرون لترتفع بشكل هرميّ مقوّس الرأس. وعند الرأس، تنحني إلى الأمام في شكل منقار معقوف نحو الأسفل، فتبدو للناظر من بعيد كأنّها نسر هائل عملاق يفتح جناحيه ويحني برأسه لينظر نحو الوادي السحيق الممتدّ عميقاً تحت قدميه من الجهة السفلى.

كانت ترتاح قليلاً ريثما ترشف جرعة ماء من طاستها النحاسيّة، ثم تكمل: «أحياناً، كان يتسلّق الرعاة أو المزارعون هذا النسر، ولكنّ أحداً منهم لم يبلغ نهاية المنقار. وقلّة نادرة من المغامرين والصيّادين نجحت في تسلّق النسر حتى نهايته، حيث ينظر المغامر إلى أسفل الوادي ثم يعود ليقصّ على الآخرين أنه قد رأى منظراً يعجز عن وصفه الخيال، مهما أبدع في الوصف والتصوير. كان الواقف على ذلك الشفير يرى وادياً سحيقاً لا قرار له، وليس فيه أثر لنبات أو لبقايا حياة، ما عدا بضع نباتات من العوسج. ولو رمى الواقف هناك بحجر لسمع لارتطامه صوتاً قريباً، بل العديد والعديد من الأصداء التي تتكرّر وتتداعى من كلّ حدب وصوب، كأنّه لن يصل أبداً إلى القعر.

كان ذلك الوادي يمتلئ معظم أيام الصيف بالضباب الأبيض الناصع الذي يتجمّع آتياً من خلف الجبال البعيدة وبطون الوديان الخاوية، لينحشر كله في تلك الهوّة السحيقة أو تلك الفجوة الفارغة تحت منقار النسر الحجري، فتبدو للمتفرّج كأنها كتل كثيفة من القطن المنبوش الناصع البياض. وكم تهيّأ للناظر من فوق أنّه لو رمى بنفسه لبقي عالقاً، محمولاً فوق ذلك القطن الكثيف، أو سابحاً عبره إلى ما لا نهاية.

كان أب تلك العائلة يمضي الصيف في العمل يومياً في تلك البقعة الممتدّة خلف أقدام النسر الحجريّ ليقلع ويزرع. فكّر مرّات عديدة في تسلّق تلك الصخرة وبلوغ رأسها ليرى بعينه ما يرويه المغامرون. لكنّه لم يجرؤ يوماً على بلوغ شفيرها المرعب. كان يعود أدراجه مكفهرّ الوجه، مرتعد الفرائص، مفضلاً تمضية حياته الغالية في حصاد القمح وقلع البطاطا وفرط الجوز وجمع الغلال، بعيداً عن التهوّر والفضول. أمّا الأم فكانت تمضي يومها في تجفيف الخضار والفاكهة وجرش الحبوب والاهتمام بأولادها وحلب البقرة. وكان الولدان يمضيان يومهما قرب الساقية التي غصّت ضفّتاها بالنعنع والريحان، يقطفان الأزهار ويجمعان الحشائش للماعز أو يطاردان الفراشات والعصافير. وكانا يفرحان كثيراً عندما يمرّ بكوخهما عابر سبيل جائع أو عطشان أو صيّاد ضلّ طريقه، فيستمعان بشغف وشوق إلى ما يقصّه الزائر عن تسلّقه رأس المنقار ومشاهدته الغيوم الكثيفة التي تبدو مثل فراش وثير.

دأبت الأم على إرسال طعام الغداء كلّ يوم لزوجها مع الطفلين إلى حيث يعمل في بقعة الأرض القريبة من الكوخ المرصوف بالحجارة وأغصان الأشجار وجذوعها، قرب ساقية لا تنام.

ذات يوم حملت الفتاة صرّة الزاد، والصبيّ مطرة الماء، وذهبا بعدما أوصتهما الأم بعدم التلكؤ أو البحث عن أعشاش العصافير على الطريق، كي لا يبرد الطعام. عندما وصلا لم يجدا والدهما في مكانه المعهود. كان ابتعد قليلاً لاستعارة معول من جاره المزارع. وضع الطفلان الزاد تحت الصفصافة الوارفة الظلال وتساءلا بفضول إن كانا يستطيعان تسلّق ذلك النسر مثلما يفعل الرواة الشجعان؟ قالت الفتاة لشقيقها: أنت ابق هنا، سأصعد أوّلاً، وفي حال رأيت ذاك الفراش من الغيوم أناديك. وراحت تتسلّق الصخور الناتئة بخفّة وشجاعة نادرتين. لم يكن في نيّتها أن تناديه خوفاً عليه. لكنّ الصغير لم ينتظر طويلاً، بل لحق بشقيقته وكاد يسبقها، مثبتاً جدارته وشجاعته قبلها.

فوق، عند رأس المنقار، نظرا إلى الأسفل. لم يعترهما الخوف، بل شعرا بالدهشة والانبهار لشدّة اقتراب الغمام منهما، حتى بدا لهما أنهما يستطيعان لمسه والمشي فوقه بثقة وأمان.

أمسك الصبيّ بيد شقيقته وراحا يستعدّان للقفز فوق ذلك اللحاف الأبيض المضلّل والمغري للنظر. في تلك اللحظة حانت من الأب التفاتة نحو قمّة الصخور، فلمح طفليه مثل عصفورين في الأفق البعيد. تسمّر الرجل مكانه مختنقاً، عاجزاً عن المشي، وقام بجهد جبّار لرفع صوته بمناداتهما ومنعهما من التحرّك.

عندما بلغ صوته مسامع الفتاة ليردعها، كان الصبي سبقها ورمى بنفسه بين أحضان الغمام بحماسة وفرح وثقة تامّة. أمّا الصغيرة فحين سمعت صراخ والدها دبّ الخوف في قلبها وتجمّدت في مكانها وأدركت هول ما كانت مزمعة على القيام به، لكن بعد فوات الأوان. وتضرب جدّتي كفّاً بكف وتقول بحسرة مريرة «راح منير»، وتغصّ بدمعها وتسكت هنيهة، فنهبّ قائلين: «وبعدين شو صار»؟

تغمض عينيها وتتنهّد وتسند رأسها قائلة: جميع الذين كانوا في تلك الحقول والوهاد من المزارعين والحطّابين والصيادين ركضوا للنجدة الأب المفجوع بعد سماع صراخه المتألّم. تلاشت الأم وتضاءلت وتقوقعت على نفسها وراحت تتلو الصلوات برجاء يائس وبكاء مخنوق.

ربط الشبّان أنفسهم بحبال طويلة، منحدرين عبر «الزحليطة» المنحدرة بقوّة نحو الأسفل، ورموا بأنفسهم بين الأشواك والصخور، غير آبهين لما سيصيبهم من جروح للوصول حتى القعر السحيق، أملاً في العثور عليه. بحثوا حتى خيّم الظلام واستعملوا القناديل والفوانيس، لكن من دون جدوى. وفي اليوم التالي أتى الجيش بطوّافة وكلاب بوليسيّة وخبراء متخصّصين، لكنّهم لم يجدوا أثراً لمنير ولا لثيابه أو حتّى للحذاء.

بقيت الفتاة لأيّام صامتة مثل صخرة. كان يشعّ من وجهها نور غريب لا خوف فيه ولا ارتباك ولا حزن. فجأة تقدّمت من أمها قائلة بثقة: «لن تجدوا شقيقي في الأسفل لأنّه لم يقع، بل كنت أراه فوق الغمام يبتسم لي ويلوّح بيده مسروراً. بقيت أراه حتى وصل أبي ليأخذني». قبّلت الأم ابنتها وضمّتها إلى صدرها، وصرخت من أعماقها قائلة: «يا ربّ، أنا لا أشكّ في قدرتك البتّة». وبقيت تذهب يومياً حتى نهاية الصيف إلى تلك الصخور المسنّنة، فتتلو مسبحتها مراراً وتذرف سيلاً من الدموع، وتبقى على هذه الحال حتى يرافقها زوجها إلى الكوخ مساء، منهوكة القوى، خائرة العزيمة، مذبوحة الفؤاد. وعندما ولى الصيف وحلّ موعد الرحيل عن تلك البقعة من الأرض، لم تستطع ترك ابنها وحيداً هناك، ففارقت الحياة بعدما طلبت إلى زوجها أن يجعل مثواها في تلك التربة التي داستها أقدام منير للمرة الأخيرة قبل أن يرمي بنفسه في أحضان الغيمة. فلعلّه يعود ويجدها في انتظاره...

لم أعرف أن جدّتي كانت هي نفسها تلك الفتاة، حتى بعد موتها. بقي السؤال يحرق قلبي ويعذّب نفسي: هل فعلاً رأته يبتسم ويلوّح لها بين الغمام ولم يقع في الهاوية، أم أقنعت نفسها بذلك لتخفّف من وجعها الثقيل؟

«التراث والقيم الكونيّة» مهرجاناً لفن المديح والسماع في فاس

انطلقت فعاليات الدورة 17 للمهرجان الوطني لفن المديح والسماع الذي ينظمه المجلس البلدي لمدينة فاس تحت شعار «التراث والقيم الكونية» وتستمرّ إلى 27 من الجاري. ويحتفي هذا المهرجان الوطني الذي يندرج تنظيمه ضمن سلسلة المهرجانات التراثية الكبرى التي دأبت مدينة فاس على احتضانها سنوياً بفن المديح والسماع كأحد الفنون التراثية التي تشكل رافداً مهمّاً وأساسياً من روافد الهوية الثقافية للمغرب. وتهدف هذه التظاهرة، أساساً إلى صون هذا اللون الفني الأصيل وتطويره والمحافظة على أصوله باعتباره مكوناً أساسياً ضمن الموروث الثقافي والفني الوطني، عبر تنظيم جلسات للسماع الصوفي وللمديح النبوي في عدد من الأماكن التاريخية في المدينة العتيقة في فاس. ويتضمن برنامج هذه الدورة، إضافة إلى الحفلات الفنية التي سيحتضنها «مركب الحرية»، تنظيم العديد من «ليالي الذكر» والوصلات الفنية الصوفية التي سيحتضنها عدد من المسارح المعروفة بدورها الكبير في حفظ هذا التراث الفنّي ونشره.

باليه مستوحى من أوبرا موزار «الناي السحري» في موسكو

يقدم مسرح باليه الكرملين للمرة الأولى في العالم عرضاً مسرحياً مستوحى من أوبرا موزار «الناي السحري». ويقدم العرض في إطار مهرجان الباليه الدولي الذي انطلقت عروضه في قصر الكرملين الحكومي في موسكو وأخرج مدير مسرح باليه الكرملين ومؤسسه أندريه بيتروف، بالتعاون مع المدير الفني للفرقة أندريس ليبيا، نسخة باليه لأوبرا موزار المشهورة، ويقدّم العرض الثاني للباليه في 26 تشرين الأول المقبل. وترافق الباليه الموسيقي فرقة «روسيا الجديدة» السيمفونية بقيادة فنان الشعب الروسي يوري باشميت.

الجدير ذكره أن «الناي السحري» من أكثر أوبرات موزار شعبية في العالم. وقدمت للمرة الأولى عام 1791 في فيينا.